٢٣

جذور التاريخ..!!

في ربيع سنة (١٩٧٠) وبالتحديد في شهور مارس وأبريل ومايو من تلك السنة بدا أن الحركة المتدفقة على كل الطرق ومن مختلف الاتجاهات أصبحت تؤدى إلى موضع بالذات أو إلى مهمة وهو موضوع لم يعد ممكناً أن ينتظر أو يؤجل وهو موضوع العملية العسكرية الكبرى التى تستهدف العبور بالدرجة الأولى.. أى تنفيذ خطة إزالة آثار العدوان.. أو البدء في تنفيذ خطة آثار العدوان مع العلم أن هذه المهمة سوف تأخذ وقتاً كبيراً لأن هذه معركة ليست سهلة في ظروفها.. لكن كان هناك إحساس أنه هنا ومن كل هذه الحركة المتدفقة ومن كل هذه الاتجاهات هناك موعد ومهمة ومكان لا بد من لقاء عنده ولا بد من حركة عنده.. وهى ليست حرب الاستنزاف لكن نقلة أخرى في الحرب نحو بداية تحرير الأرض.

وكان هناك تصور عند العرب والعالم ساد طويلاً هو أن العرب يستطيعون تحمل هزائم لأنهم ثابتون في الأرض ولأن جذورهم ممتدة ضاربة في أعماق التاريخ ولأنهم في أرضهم وفي أوطانهم فالتاريخ معهم والثقافة معهم والحضارة معهم والموقع ملكهم وعددهم كبير جداً.. حيث كان بإسرائيل من ٣ ملايين إلى ٣ ملايين ونصف المليون مهاجر والعرب من ١٨٠ إلى ٢٠٠ مليون عربى.

وأظن أن صانع القرار المصرى كان يدرك أننا أمام تحد في ميدان القتال لا نستطيع أن نخسره.. وأنا أتذكر المنطق الذي كان يقوله (جمال عبد الناصر) بعد ما خسرناه من سنة (٦٧) والطريقة التى خسرنا بها.. نحن لا نستطيع الآن ولا نملك أن نضيع هذه الفرصة في المرات القادمة وهذه الفرصة القادمة لا بد أن ننجح فيها ولا يمكن أن تحتمل فكرة أى فشل فيها.. لأنه ببساطة بعد (٦٧) هناك جرح غائر وبعد (٦٧) هناك جهد ضخم جداً بذله الشعب المصرى.. الشيء الآخر أن الذي يسيطر أننا لا نتوقع تغيير الموقف الدولى.

وفي ذلك الوقت كنت أحاول أن أعرض ما الطرق التى كانت الحركة تجرى عليها.. وقد بدا أن الاستعداد العسكرى قد وصل إلى درجة اعتبرت كافية وزيادة.. طبقاً للتقرير الذي كتبه الفريق محمد فوزى في ذلك الوقت.. وقال فيه إن قواتنا المسلحة جاهزة للعمليات وعلى خط القتال وتقف هناك خمس فرق مشاه و٣ فرق ميكانيكية وفرقتان مدرعتان و٣ لواءات مدرعة مستقلة و٣ كتائب استطلاع برى ولواء إنزال بحرى.

لم تكن المهمة في ذلك الوقت فهم نظرية الأمن الإسرائيلى لأنه إذا تم كسر نظرية الأمن الإسرائيلى فقد تم فتح الطريق بلا حدود.. لأن نظرية الأمن الإسرائيلى تعنى ما هو أكثر بكثير من نظرية القتال.

وفي ذلك الوقت نظرية الأمن الإسرائيلى قادرة على الردع وبقسوة منذ الوهلة الأولى.. وهنا قال الفريق فوزى إن أول ما يبدو على أول موعد على الطرق المؤدية إلى هذا اللقاء وهذه المهمة على هذا الطريق هى القوة المسلحة وهنا قالت القوات المسلحة إنها قادرة على تنفيذ الخطة الموجودة في ذلك الوقت وهى خطة في منتهى البساطة وتحدثت عنها في ذلك الوقت وهى جرانيت (١) وهناك جرانيت (٢) وجرانيت (٣) ولكن هذه الخطط كانت خارج الحساب في ذلك الوقت.

كانت قواتنا المسلحة المصرية تحتاج باستمرار إلى قاذفة مقاتلة ولم يكن لدينا وقال لنا الاتحاد السوفييتى إنه ليس لديه قاذفات تؤدى ما نريده.. ولديهم قاذفات ثقيلة مجهزة للردع النووى والحرب النووية وهذه لا تصلح لهذه المهام التى نريدها.. وكان هناك اعتقاد في القوات المسلحة أنها ليس بها قاذفة وظهرت فرصة هائلة مع الثورة الليبية وحاول كل الناس استرضاءها فحاول الأمريكان أن يجددوا مع الليبيين قاعدة ويليس ويلوحوا لهم بأنه من الممكن أن يبيعوا لهم طائرات فانتوم وفي ذلك الوقت حاولت فرنسا الاقتراب.. وأنها من الممكن أن تبيع لهم طائرات من طراز ميراج وكل الأطراف الأوروبية والغربية كانت تعرف الحركات المسماة ثورية في العالم العربى بها ضباط وقضية السلاح.

وفي ذلك الوقت طُلب منى أن أقابل العقيد (القذافي) خاصةً وأنا في ذلك الوقت الوحيد الذي أعرف (القذافي) من المجموعة القريبة من (جمال عبد الناصر) وبالفعل ذهبت له ومعى جواب من (عبد الناصر) رسالة مكتوبة.. وقابلت العقيد (القذافي) وأعضاء من مكتب قيادة الثورة وقلت لهم: لدى رسالة من الرئيس ومقتضاها أن الأمريكان لن يعطوكم طائرة فانتوم والروس لديهم طائرة ميج المعدلة M.S وأى صفقة ستقومون بها مع الروس ستكون صفقة مكررة.. وطلبنا منهم شراء الطائرة ميراج التى بها كل المواصفات وقلت لهم إنه مجال للشطارة وأن الأمريكان سيعرفون بالصفقة وأن الحلفاء سيتبادلون المعلومات.

ولكن هناك منطقة معينة لمنافسة أمريكية فرنسية سواء على المنطقة أو على بيع السلاح أو بالنفوذ السياسى أو بالبحر الأبيض هناك مساحة نزاع نستطيع استغلالها وبالتالى إذا استطعتم شراء الميراج فاعقدوا صفقة بها ونحن طلبنا أن يحاولوا شراء ما بين ٥٠ و١٠٠ طائرة ميراج.. وهم سيدفعون النقود.. ونحن جاهزون للمساعدة على عقد الصفقة وتدريب الليبيين مع مصريين بجوازات ليبية وتسير الصفقة.. وعلى ما بدا لى فإن الرسالة توافقت مع الليبيين في ذلك الوقت.

والليبيون استطاعوا أن يعقدوا صفقة ١٠٠ طائرة ميراج وخمسة طائرات تدريب.. وفي ذلك الوقت الذي كنت أتحدث فيه عن الطريق لمقاربة موعدها ومهمتها أصبح موجودا نحو ما بين ٣٨ و٤٠ طائرة ميراج.. وأقول إن الفرنسيين لم يضعوا آخر ما هو موجود في هذه الطائرات لكن هذه الطائرات كانت كافية للمهمة.. وهذا هو الطريق الثانى..

أما الشيء الثالث فهو أمر موجود أمام صانع القرار المصرى هو رفع درجة الصراع بيننا وبين إسرائيل في لحظة القتال من المستوى المحلى "جبهة مصرية واحدة".. إلى مستوى معركة عربية إسرائيلية ثم إلى مستوى توتر دولى خطير تتحرك في ظله موازين أكبر من الصراع العربى الإسرائيلى.

لكننا كنا نريد لحظة القتال أن يكون فيها تأهب دولى على الأقل وألا تكون المسائل متروكة في ذلك الوقت من المعركة لموازين محلية على الأرض في هذا الشريط وراء قناة السويس وهذا الشريط المقسم إلى ١٥ كيلو على كل جبهة والذي ستدور فيه المعركة سوف يؤثر في مصائر العالم.

أما الطريق الرابع فهو وجود سوفييتى كثيف مع أسلحة سوفييتية كثيرة حتى مع دخول أسلحة فرنسية بدا أن الوضع في الأقليم يهدد بخطر.. والطريق الرابع هنا هو أن السوفييت وعندهم أناس وضحايا في مصر بدأوا بتعبئة الرأى العام للاتحاد السوفييتى فيأتى جنرال سوفييتى ويقرأ رسالة يقول إن الرئيس برجينف يود إخطارك أنه في هذه اللحظة بدأ تعبئة كاملة في المصانع والجامعات والنقابات والجيش وكل مكان للوقوف معنا.. وهنا الطريق الخامس من خطة جرانيت وهو الوجود السوفييتى في البحر الأبيض بدأ يزيد خاصةً عند مخارج البحر الأسود.

الشيء السادس قلق الرئيس (نيكسون) نفسه وفي ذلك الوقت أجد محادثة بينه وبين رابين.. ورابين في ذلك الوقت كان سفير إسرائيل في واشنطن وكانوا يضغطون ويريدون ردا من الأمريكان عما يحدث ويعطونهم سلاحا. وأجد (نيكسون) جالسا يشرح للسفير الإسرائيلى في واشنطن وهو الجنرال رابين وقال له لا تعتقد أن المسألة مسألة بترول بالنسبة للعرب.. أنا في كل مرة تضربون فيها العرب أكون سعيدا وعند التهديد أيضاً أكون راضياً.. ويقول رابين في الوثيقة والتى كتبها في مذكراته بعد ذلك إن هذه الصواريخ لم نتوصل للدفاع ضدها وتحتاج للدفاع عنها والولايات المتحدة لم تتوصل بعد لصاروخ مضاد.

والطريق السابع من جرانيت العبور وهو عنصر مهم فقد أدرك (عبد الناصر) في اجتماع قمة عقد في طرابلس لدول المواجهه في ذلك الوقت أواخر يونيو سنة (٧٠) أنه سيخوض المعركة بمفرده.. وكان (عبد الناصر) حريصا وخرج من طرابلس وتعليماته

تنفيذ جرانيت (١) فقط وليس جرانيت (٢) والوصول للمضايق وليس جرانيت (٣) وهى الوصول للحدود ولم ترسم بعد وكانت في إطار التخطيط.

وهنا كان (عبد الناصر) محدداً لهدف معركته وما الذي يمكن أن يترتب عليها وأنه مستعد لمخاطرة البدء.. ومعتقداً أنه عندما يبدأ ويتم العبور سوف يحرك آخرين وبالأمل جماهير عربية بلا حدود وهذا كان الطريق السابع الذي كان يسير إليه كل طرق الحركة.

ووَقَعَ (عبد الناصر) خطتين والتى بها جرانيت (١) عبور بحماية حائط صواريخ ووقع أيضاً خطة في منتهى الأهمية وهى خطة (٢٠٠) ولها قصة وبداية ففي يوم من الأيام أواخر سنة (٦٧) كتبت مقالة عن شخص في القوات المسلحة.. لم أذكر اسمه وهو كان موجوداً في أحد أهم فروع القوات المسلحة يطلب مقابلتى في مكتبى في الأهرام.. ولا أريد أن أذكر اسمه.. وقال لى إنه لم يعد ممكناً أن نُفاجأ مرة أخرى وأريد أن أقول لك بأمانة المسئولية وأريدك أن تنقل هذا لـ(عبد الناصر).. وأن المفاجأة ما زالت ممكنة وأنا موجود وأعرف بحرب الصواريخ ونتصور أننا لا نستطيع أن نفاجئ وقال إن الإسرائيليين من الممكن أن يقوموا بعبور مضاد من الشرق إلى الغرب لدينا لتدمير حائط الصواريخ عند بنائه.

واستمعت للضابط جيداً وقدرته وقدرت اهتمامه.. وبعدها بثلاثة أيام التقيت (عبد الناصر) وقلت له ما حدث وذكرت اسم الضابط ورتبته.. فقال لى (عبد الناصر) إنهم يجهزون أيضاً خطة العبور المضاد لمنع الإسرائيليين من غلق الجسور.. فقال لى احضر لى هذا الضابط.. وكان (عبد الناصر) حريصا على مقابلة الناس من خارج المحيط.. وقد سجلت هذه المقابلة ومعى محضر الجلسة بخط (سامى شرف) والمحضر مكتوب فيه اجتماع بين (عبد الناصر) وضابط كبير.

والرئيس قال: أهلاً وسهلاً.. (هيكل) قال لى إنك قابلته مقابلة طويلة ووجدت فرصة أسمع منك مباشرة.. وقال الضابط إنه يشكرنى على إتاحة فرصة لمقابلتك وأن هناك حقائق لا أعرف إذا كانت وصلت لحضرتك أم لا.. وبدا هذا الضابط يتحدث وكأنه يتحدث عن الثغرة.. وقال إنه يعرف استعداد القوات المسلحة لاحتمال عبور إسرائيلى مضاد لكننى أخشى أن الإسرائيليين أمامهم فرصة للقيام بما هو أكثر وأرجو يا سيادة الرئيس التنبه لها.. لأن الإسرائيليين من الممكن أن يعبروا بدبابات لا يكون

هدفها منع القوات من التدفق على الكبارى ولكن لتكون ثغرة دخول وتطويق مواقع الصواريخ وتدميرها وهو الغطاء الذي يحمى القوات للتقدم.. ويحكى الضابط مخاوفه و(عبد الناصر) يسمعه.. وقال الضابط إنهم من الممكن أن يفكروا في "تقشير" حائط الصواريخ لحرمان القوات حتى إذا تمكنت وتمركزت هناك من حائط الصواريخ التى وراءها.. وقد تم وضع الخطة ٢٠٠ لمواجهة هذا الاحتمال والذي قد تحقق في حرب أكتوبر.. فالتاريخ مرات والوقائع مرات عندما تضيع الذاكرة تضيع معها أشياء كثيرة جداً.. وخطة ٢٠٠ هى الطريق الثامن لصد العبور المضاد وحماية الصواريخ من تدميرها.

❖❖❖